الفصل الثالث

الشهود

بين الفناء عن السوي والفناء الأول

بعد أن عرضنا في الفصل السابق للفناء الإرادي وإمكانه وخصائصه وأذواقه ومرادفاته، نتحدث هنا عن الفناء من الدرجة الثانية وما يتبعه من بقاء الشهود، ونقول في البداية: إن الفناء من هذه الدرجة يختلف عما سبقه من حيث الحقيقة ومن حيث اللفظ، أما الحقيقة فإن الفناء عن شهود السوى لا يوجد إلا عندما ينتقل العبد من فناء الصفات المذمومة ومن فناء الإرادة كما كانَ الحال في الفناء الأول إِلَى الفناء عن الشعور بجميع الصفات مذمومها ومحمودها وعن كل ما يدور في نفسه وما يتصل بباطنه وعن الأسرار واللوامع والطوالع.

وتخمد بشريته بجميع إحساساتها الأصلية والعارضة والممنوحة، وينقطع عن الكون وما فيه ويتخلص من ملابسة الطباع ومطالب التعينات وعن كل أثر ورسم وكل حظ دنيوي أو أخروي، وبإيجاز فلا بد أن يغيب السالك عن جوانيته كلها بمعنى لا يشهد منها صفة أو سرًّا، ولا يرى منها حكما ذاتيًّا أو وهبيًّا وأن يقطع النظر حتى عن الأسرار المستكنة في القلب وعن الأسباب والخلق وما يدور من حوله لاستهلاكه في العين عند لمعان نور الشهود لمعانًا يفني كل ما سوى المشهود ولا يبقى إلا الشاهد الذي هو صورة المشاهدة في نفس المشاهد ودون أن يحس أو يلتذ بأنوار المشاهد وكأن المشاهدة هنا فناء ليس فيها لذة ولا التذاذ وليس فيه خوف من سلب.

وذلك كله لغيبة الصوفي بمعبوده عن عبادته وبمشهوده عن شهادته وبمذكوره عن ذكره، ولاصطلامه الناشئ عن تجلي الصفات أو الذات أو عن

مطالعـة الجمال والجلال، وأصحاب هذا الحال هم المقربون الذين أيقنوا أنه من المحال أن ينفتح باب العلم وفي القلب لمحة للعالم بأسره، أو أن ينفتح باب الملكوت وما زالت فيه بقية من شهوة أو حس فتخلصوا من كل شيء وذاقوا عين الحقائق دون أن يشعروا.

وبموازنـة بين هذه العبارات الجامعة لمعاني الفناء الشهودي وبين ما قلناه في الفـناء الإرادي يتضح الفرق بينهما حقيقة من عدة وجوه: أهمها أن الأول يبدأ بـالإرادة والثاني تلاشت فيه الإرادة لكونه مرحلة تبدأ بعد سقوطها، والأول لا تمتـنع فـيه رؤية الصفة أو الفعل خاصة في بدايته والثاني لا ينظر فيه السالك إلى شيء أصلاً منذ البداية والأول نشعر فيه بالمذاقات والأحوال والثاني فناء عن هذا الشعور وكل شعور لا يتصل بالمشهود، والأول للعبد فيه بقية والثاني تحقق للعبد بالتلاشي كاملاً.

وأمـا الفرق من ناحية اللفظ فإنه تابع للفروق السابقة أو للفروق الجوهرية التي استمعنا إليها لأن اللفظ فرع المعنى فكلما كان المعنى دقيقًا جاء اللفظ ينم عن دقته وكلما كان ظاهرًا وسطحيًا كان اللفظ كذلك، ففي الأول كان اللفظ دالاً عـلى المحاولات المستمرة لإماتة الرذائل ولقطع التعلق بالأسباب والخلق، وكان مشـيرًا إلى بقايا الشعور والحس، أما هنا في الفناء عن شهود السوى فإن العبارة دالـة على المحو الكامل وعلى تلاشي الشعور بالأنية، وإليك صورة من صور هذا التعبير، سأل رجل سحنون المحب عن حالـه فقال الصوفي:

أرسـلت تسـألني عني كيف كنت وما — لا قيـت بعـدك مـن هـم ومـن حزن
لا كنت إن كنت أدري كيف كنت لا ولا — لا كنـت إن كنت أدري كيف لم أكن [1]

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٩: ٢٣٦.

وقـــال أبو سعيد بن أبي الخير عن مرحلة فناء الشهود: لقد صرت لا أدري نفسي لأنني فنيت فيه، وتلك صفته و لم أكن أنا وسوف يكون هو ولن أكون أنا، والآن لا أســتطيع أن أتــنفس نفسًا بنفسي، ولست أدعي المشاهدة والتصوف والــزهد فالشخص الذي ليس لــه اسم هل يمكن أن يطلق عليه اسم، هذا محال ولــيس بجائز[1]، وفي الفناء الأول كانت الألفاظ متصلة بالتوحيد والإخلاص أو الفضائل الشرعية أي كانت ذات طابع ديني صرف ولذا اتفق الجميع على صحة قــيامه بالعبد، أما هنا فإننا نرى التركيز على فقدان الدراية واستعمال الكلمات الــتي تتصــف بــالغوص في الفناء مما يجعلنا نميل قليلاً إلى اتهام مثل هذه الأقوال بالمــبالغة إذ لا نتصور انطباقها على أصحابه ووجود معانيها لديهم وإلا فكيف فهموا الأسئلة التي وجهت إليهم وكيف أجابوا عليها؟ ومن المتحدث وبأي لسان نطق؟ وكيف تخير الألفاظ وعمّقها لو صح أنهم كانوا غائبين أو لم يكونوا بالكلية أو لم يــدروا تمامًــا؟ ولا يمكن قبول الزعم بأن الإجابة جاءتهم من اللــه حيث نطقوا به بعد فنائهم لأن هذا الأسلوب لا يتناسب مع عبارات الوحي ولا الإلهام كما نقرأ في القرآن والحديث القدسي وعلى ألسنة أرباب الفراسة الشرعية.

فالــرأي المقبول شرعًا وعقلاً هو أن الفناء جائز في المرحلتين وأن الرجال في الأول كانوا أمكن وفي الثاني كانوا أطيش، وبعد أن ألمعنا سريعًا إلى طبيعة الفناء في الدرجة الثانية نأتي إلى مذاقه في الشهود.

(١) ابن أبي الخير: أسرار التوحيد ٣٣٨.

تعريف المشاهدة

العبد الذي يذوق حقائق الشهود يسمى المشاهِد، والحقائق المكشوفة تسمى المشاهَد، وبقاء صورة المشاهدة في نفس المشاهد أو صورة المشهود في القلب هي عينا لشاد وبه بقع النعيم للمشاهد[١]، ورجال الطريق وهم يعرفون عملية المشاهدة بمراحلها وما فيها أشاروا إلى طريقها أو إلى ثمارها أو هما معًا، ومن الأول قول الهروي: هي سقوط الحجاب بتا[٢] ويقول الشيخ جاكير: إنها ارتفاع الحجب بين العبد والرب[٣] ومن التعريف بالثمار والأذواق قولهم: المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب[٤] ويقول ابن عربي: هو رؤية الأشياء بدلائل التوحيد أو رؤية الحق في الأشياء[٥]، وقد يجمعون بين التعريف بالطريق والأذواق معًا فيقول السراج: هي إبّانة الأسرار عن المحدثات لمشاهدة الحق بالحق على الاتصال بلا علة، ويقول القشيري: هي حضور الحق من غير بقاء التهمة، ففي النوع الأول من التعريف روعي التركيز على الطريق وضرورة إخلاء الحجب نهائيًّا وفي الثاني تحدثوا عن فوائدها الغيبية والتوحيدية وفي الثالث جمعوا بين ذهاب العلّة والتهمة وبين إبانة الأسرار والمشاهدة والاتصال والحضور، ومع أن التعريف كما نرى تعرض للسبيل والثمرة والمحل وهو القلب إلا أن التعريفات خلت من بيان طبيعة المشاهدة وكيف يتم تعرف القلب على الحقائق أو كيف تنطبع فيه الأسرار ويذوق اليقين؟؟

---

(١) ابن عربي الفتوحات المكية ج٢: ٧٤٨.
(٢) ابن القيم: مدارج السالكين نقلا عن منازل السائرين ج٣: ٢٣١.
(٣) طبقات الشعراني ج١: ١٢٨.
(٤) اللمع: ١١٠.
(٥) ابن عربي: كتاب مصطلحات الصوفية ٩ والفتوحات ج٢: ٦٥١.

Obeikandl.com

هل بإمكاننا أن نشاهد الحقائق؟

إذا لم يقطع الصوفية بالوجه التي تحصل به القلوب حقائق اليقين ومنح الغيب فهل بإمكاننا أن ندركها ببصائرنا وإن عجزنا عن وصف طبيعة تلك العملية الإدراكية؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نضع يد الباحثين على عدة نقاط.

(أ) **كثرة الحجب**: حقًا إن الحجب كثيرة بيننا وبين الله وإنها متنوعة إلى حجب نور وظلمة كما قال رسول الله ﷺ: «**إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**» وحجب النور متصلة بالله وحجب الظلمة مرتبط بالعبد، والعدد في الحديث لا مفهوم له بل هي أكثر من السبعين وهي حجب لا تتناهى ولا يتسنى لنا قطعها حتى النهاية وإلا استطعنا أن نكتشف الله على الكنه والحقيقة أو نراه بالعين المجردة، ولكن الله مع وجود هذه الحجب لا يمنع العبيد من الاقتراب إلى أسراره والدنو من الحقائق التابعة والصادرة منه بمقدار قطعهم للعوائق والحواجز، وهو بذاته سبحانه ليس مستحيلاً على الإدراك ولا بعيدًا عن التعرف، وإنما هو بذاته وصفاته قابل للمعرفة بإدراكها العقلي والقلبي، ومن ثم فإن كل من حاول الوصول إليه بأي منهما أدركه نوع إدراك يتناسب مع القوى والجهد اللذين سعيًا إليه، وإذا كان الله قابلا للمعرفة فما معنى الاحتراق المذكور في الحديث السابق؟

هنا يجيب الغزالي بأنه يعني أن السالك كلما اقترب درجة وقطع شوطًا أدناه الله وكشف له عن أنواره، وما يزال كذلك حتى يقطع العارف عديدًا من الحجب وتكشف له كثير من الأسرار وبحكم أنوار الحقائق التي يحصلها تحرق فيه العلل وتزيل منه العوارض وتضمحل الرسوم وتتلاشى الأسباب وهذا معنى الاحتراق[1].

---

(١) الغزالي: معراج السالكين ضمن مجموع ٢٢٦.

وليس المراد ما يتبادر إلى الذهن من سياق الحديث وأن الله غيور على ذاته وصفاته بحيث إذا حاول أحد الاقتراب متعرفًا أحرقه فارتد خاسئًا حسيرًا، وعاد بخيبة الأمل والجهل والظلمة، وأيضًا فإن الحجاب المستحيل على الإدراك هو للأجسام المستترة خلف الكثافات والباري ليس بجسم، والمحتجب على الحقيقة ما كان في جهة والله ليس كذلك بوجه من الوجوه فلا حرج إذا من محاولات القرب والاتصال والتعرف والكشف والشهود.

(ب) **أول من تكشف عنهم الحجب:** ومع إمكان كشف الحجب إلا أن الصوفية اختلفوا فبعضهم يرى أن الكشف الشهودي لا يقع إلا للأنبياء في الدرجة الأولى ومنهم ابن عطاء الآدمي في أحد رأييه يقول: خلق الله الأنبياء للمشاهدة، وخلق الأولياء للمجاورة، وخلق الصالحين للملازمة، وخلق العوام للمجاهدة[1]، لقوله سبحانه: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. وقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح:٢٦] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله ﷺ: «**عز جارك**» وقد ساق الأدلة بين ثنايا النص السابق، وقال ممشاد الدينوري: أرواح الأنبياء في حال الكشف والمشادة وأرواح الصديقين في القربة والإطلاع» وبين إبراهيم القصار أن الأنبياء لهم الكشف عن حقائق الحق وللأولياء الدرجات والكرامات[2] وهذا الاتجاه فيه تواضع وأدب مع الأنبياء علاوة على أن النصوص الدينية تبين وقوع مثل هذا الشهود للنبي ﷺ في كثير من المواقف المتصلة بشهود الملك أو الملكوت أو الجميع، ومن الأوائل قول النبي ﷺ :«**لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت** أخبرهم

(١) طبقات السلمي: ٦٣.
(٢) طبقات السلمي: ٧٧ ، ٧٨.

عن آياته وأنا أنظر إليه» وصلى النبي بالصحابة صلاة الكسوف وأخبرهم بأن الشمس والقمر آيتان ثم قالوا له: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا مقامك ثم رأيناك كعكعت؟ قَالَ: «**إني رأيت الجنة فتناولت عنقودًا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**».

وهذا مما يتصل بالملكوت، ونظيره أيضًا قوله: «**رأيت الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة ثم سمعت خشخشة أمامي فإذا بلال**» وقال: «**إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط**» وقال مرة معبرًا عن عموم الشهود «**ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار**»[1] وعلق القسطلاني فقال: أي رؤيا عين كشف له عنها فرآها على حقيقتها بعدما طويت المسافة بينه وبين المشاهدات.

(ج) **جواز الشهود للأولياء**: ويرى جمهور الصوفية أن الشهود يقع للأولياء بعد الأنبياء وهذا هو المأثور عنهم والذي نراه في أقوالهم أثناء عرض هذا الحال في الفصل الذي معنا، والحق أنه ليس هناك تعارض بين رأي من قصر الشهود على الأولياء ومن عممه لأن أنصار الرأي الأول ما قصدوا إلا أن الشهود الكامل والجلي لا حجب معه أو علة هو ما يقع للكامل من الخلق وهم الأنبياء ولعل القسطلاني وهو يقول عن شهود النبي للحوادث السابقة إنه رؤية عين وبصر حقيقي لما جلاه الله له في صورة أو على جدار كان يعني مقدار اليقين الذي يحمله شهود الأنبياء أو قوة المشهود إلى درجة أن صار ماثلاً أمام القلب والعين معًا، أو شدة قربه حتى أن النبي مد يده ليتناول

---

(١) صحيح البخاري ج٢: ٤٦ ج٦ : ١٠٤ ج٨: ٩٦ وصحيح مسلم نووي ج٥: ٣٢١ و إرشاد الساري ج٢: ٣٠٨ ج٩: ٢٣٠ وكعكعت أي كففت.

عنقودًا من الجنة، وليس الأمر من الجلاء والقوة والشدة في شهود الأولياء على نحو ما رأينا لدى الأنبياء، وإنما هو زيادة يقين بالحقائق والأسرار والمواهب.

ويمكن للأولياء أن يصلوا إلى درجة الشهود بأحد أمرين أحدهما ذاتي يختص به تكوين النفس البشرية، وهو أنها تواقة إلى الصعود لأعلى المدارك متنقلة من المحسوسات إلى المجردات إلى المفارقات وخاصة عندما توصف النفس بأنها من النوع الراقي أو السامي، وهي في هذا التنقل وفي كل مداركها لا تنقطع صلتها بالأشياء المدركة بل تظل صورة المحسوسات والمعقولات عالقة بها بعد أن تفارق المدركات.

وقد تزداد تلك العلاقة وتسيطر على الذات المدركة وتحدث لها لذة تفوق تلك التي كانت تتمتع بها أثناء الإدراك الحسي أو العقلي، ولا شك أن لذة العلاقة المجردة التي تنشأ من الإدراك الذوقي عن طريق الكشف أقوى وأشد سواء أكانت حال قيام الإدراك أو حال تصوره بعد انقطاعه، وتبلغ تلك القوة أو هذه الشدة حدًّا يقول فيه أحمد بن عطاء الصوفي:

وكيف أنساك يا مدى هممي ... وأنت مني بموضع النظر (١)

أو يقول محمد بن المستنير النحوي المعروف بقطرب (٢٠٦هـ):

إن كنت لست معي فالذكر فيك معي ... يراك قلبي إذا ما غبت عن بصري

والعين تبصر من تهوى وتفقده ... وباطن القلب لا يخلو من النظر(٢)

وإنما كان كذلك لأن ذكر الشيء في القلب أو إدراكه قوي ورسخ وثبت حتى أضحى كالمرئي أو كالمشاهد، وهو المعني بالشهود المتوهم والذي قال عنه

---

(١) تاريخ بغداد ج٥: ٢٩.

(٢) وفيات الأعيان ج٣: ٤٤.

الرسول ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك**» فالفكرة أو الصورة حينما تتردد في النفس كثيرًا وتستغرقها تنجلي أمام المدارك الإنسانية وتصبح كأنها مرئية، والحادثة القوية أو البرهان الناصع أو الحجة المسفرة تجذب جميع المشاعر إليها ويستحوذها ويتمركز فيها النشاط الداخلي حتى تصير الفكرة أو الحقيقة كأنها ماثلة أمام القلب لا تفارقه فيعبر عن هذا بالشهود، وعلى الأخص إن كان ما يجول في قلوبنا وخواطرنا واردًا من الله سبحانه وهبًا ومنحة.

وثاني الأمرين هو ما يقوم به الصوفي من جهد وبذل ورياضة لكي يعد نفسه لتلقي أنوار الشهود وأن يبدأ أولاً بالتحقيق وهو تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة قدر جهده وطاقته، ثم ينتقل من التكلف إلى الانجلاء وتطهير البيت من الخرافات والعلل، ويزداد في ذلك حتى تبدل الصفات فينطق ويسمع ويبصر ويشاهد الأشياء بالحق لأن الحق صار دليله على كل شيء، وذلك حسبما ساق الشبلي والكتاني والواسطي والسراج وابن أبي الخير[١].

ومن المعلوم أن الطريق إِلَى الأذواق العليا مهما كَانَ جيدًا ومهما حوى من المراقبة والكسب والتدرج والتلون ثم الثبات لايكفي وحده بل لا بدَّ من التدارك أي:أن يتدارك الله العبد ولذا يقول سعيد ين أبي الخير:

سعيت كثيرًا حتى	**كلت قدماي**
وفي النهاية لم	**أحصل على فائدة بدونك**
ولما بسطت يدي مبايعا	**لك بالوفاء**
قبعت في دا	**ري مستريحًا[٢]**

(١) طبقات السلمي: ٧٢ ، ٨٢ ، ٩١ اللمع: ٤١٣ والتعرف ١٠٦ وأسرار التوحيد ٣٣١ وطبقات الشعراني ج١: ١٠٢.

(٢) أسرار التوحيد ٣٤٠.

فالجذب والتدارك مهمان لإيصال العبد ومنحه، ويمكن أن يرجع في ذلك إلى طريق الفناء في المرحلة الأولى.

القلب محل النظر والشهود

جاءت النصوص الدينية تدل على أن للقلب نظرًا وبصرًا وأنهما مستمران حتى مع فقد العينين قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]. وهو محل نظر الله «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وأيضًا فالاتفاق قائم بين أرباب العقول من البشرية عامة على أن القلب محط الأفراح والأتراح والأشواق والأحزان، ومن طبيعته أن ما يشعر به يتسم بالعمق والاستمرار فلا عجب أن نرى القلب محل اهتمام المتدينين من كل ملة وعلى وجه خاص المشتغلين بالنواحي الروحية وبالرجوع إلى ما ورد عن الصحابة نرى أن أول من أسند للقلب نظرًا شهوديًا بالمعنى الصوفي هو الإمام علي بن أبي طالب حيث قيل له أتعبد من ترى أمْ لا ترى ؟ فقال: بل أعبد من أرى لا رؤية العيان ولكن رؤية القلوب(١)، وقال معاذ بن جبل: كَلِّم الناس قليلاً وكَلِّم ربك كثيرًا لعل قلبك يرى الله عز وجل(٢).

وتحدث الزهاد بعد ذلك عن صلاحية القلب لتلك المهمة ثم جاء الصوفية فألقوا بدلوهم واستفاضوا في شرح وبيان حال القلب المستحق لنيل المطالعة ووصفوه بأنه القلب الحي القائم بحق الله وبعبادته والخضوع لعظمته مع رؤية التقصير، وهو الذي يلاحظ جلاله وجماله ولا يغيب عنه فترة على حد عبارة

---

(١) الغزالي: روضة الطالبين: ١٢٤.

(٢) الرسالة القشيرية ج١ ٢٤٦ ط د/ عبد الحليم.

ObeiKandi.com

ابـن عطاء، هذا القلب الذي انقشعت عنه الغشاوة وانجلت عين بصره هو الذي يستأهل النظر إلى اللـه ويستحق التطلع إلى ما عنده من أسرار لأن الصحيفة البيضـاء هي التي ينقش عليها، ومن ثم أثبت الحلاج والشبلي بصرًا للقلب فقال الأول:

فيك معنى يدعو النفوس إليك ودليل يدل منك عليك
لي قلب له إليك عيون ناظرات وكله في يديكا[1]

وقال الثاني:

علي بعدك ما يصبر من عادته القرب
ولا يقوى على حبك من تيمه الحب
فإن لم تترك العين فقد يبصرك القلب[2]

وقال اليافعي:

يا غائبًا وهو في قلبي أشاهده ما غاب من لم يزل في القلب مشهودًا
إن فات عيني من رؤياك حظهما فالقلب قد نال حظًّا منك محمودًا[3]

ولم يكتفوا بهذا بل جعلوا لنظره معاني إدراكية متعددة فأكد المكي أن الواردات الهابطة إليه من عالم الغيب إن نزلت على سمعه سميت فهما وإن نزلت على بصره سميت نظرًا وهو المشاهدة[4] . فالشهود نظر قلبي لا غير.

(١) من أشعار الحلاج ١٣٦.
(٢) تاريخ بغداد ج٤: ٣٩٢.
(٣) اليافعي روض الرياحين ١٩٥.
(٤) المكي قوت القلوب ج٢: ٤.

النظر القلبي معان عرفانية

إذا تأكد لدينا أن القلب محل الشهود فأي شيء يذوقه القلب حتى يجعله كالناظر؟ وما هي الحقائق التي شاهدها أرباب القلوب حتى أضحى القلب بنورها كأنه مطالع لمنابعها؟ ولكي نجيب على هذين السؤالين فإننا تتبعنا ما جاء على السنة الروحيين الإسلاميين فوجدناهم يقولون إن المشاهدة لا تعدو ذوب الإيمان الصافي أو حقائق الإيمان وزوائده، وهي نور اليقين الثابت أو دلائل المعرفة الخاصة وثمرة من ثمارها، وتقف بداياتها على نهايات المرحلة الإيمانية القائمة على الدليل والبرهان الكسبي، ولذا يحلو لأرباب القلوب أحيانًا أن يسموها بالمعاينة لحقائق اليقين في مقابل علم اليقين الناتج عن النظر العقلي.

كما يقولون كذلك إنها قمة العبادة وثمرتها أو هي الإحسان فيها، ومن هنا فهي ليست رؤية حقيقية أو مشاهدة المواجهة التي تحدث مع العين، وليست ترائيًا لصور محسوسة وإنما هي درجة عرفانية بحتة تتعلق بالحقائق وبدرجة المراقبة وترتبط بمعرفة أحداث ودلائل مضت أو قادمة ظاهرة أو مختفية، ويدخل فيها القرب والحضور دخولاً أوليًّا وبهذا صرح جمع من الصحابة والصوفية(1).

وإنما سميت الحقائق المدركة رؤية أو نظرًا أو شهودًا ومشاهدة لقوة التصديق

---

(١) الإمام علي في اللمع ٥٤٤، وعبد الله بن مسعود في صفة الصفوة ج١: ١٦٢ وجعفر الصادق في روضة الطالبين ١٣٣ وانظر ابن عاصم الأنطاكي في طبقات السلمي ٣٣ وذا النون وسهل في اللمع ١٠٣ وكذا النهرجوري وعمر وابن عثمان في اللمع ٤١٢ والجنيد في اللمع ١٠٠ وابن أبي الخير في أسرار التوحيد ٣٤٩ والسراج في اللمع ١٠٤، ٤١٣ ، ٥٤٤ والكلاباذي في التعرف ١٠٣ والهروي وابن القيم في مدارج السالكين ج٣ ٢٣١-٢٣٩ والرفاعي في الشعراني ج١: ١٢ وأبا الحسن الشاذلي في تحفة السفرة ٤٨ وابن عربي في الفتوحات ج٢ ٧٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ والسهروردي في عوارف المعارف ٦٢.

بموضـــوع الإيمان والغيب، ولتجلي الحقائق حتى كأنها رؤية عين، ولأن القلب قد قرب ودنا من الغيب فصار كالمشاهد لـــه من باب التغليب[1]،وهذا التفسير هو ما توحي به الآيات التي صدرت بكلمة ﴿ أَلَمْ تَرَ﴾ مثل قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣]. قولــــه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [آل عمران:٢٣]. قولـــه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ [الفرقان:٤٥].

فهـــذه الآيات قد استعملت الرؤية والمقصود العلم القلبي وقال الطبري في تفســـيرها: يـــرى الـــبعض أن المعـــنى ألم تخبر ويرى آخرون ألم تعلم ثم يقول: والصواب من القولين في ذلك ألم تر بقلبك يا محمد علمًا، وذلك أن الخبرة والعلم لا يجلـــبان رؤيـــة ولكـــنه رؤية القلب بالعلم[2]، وقد وافقه القرطبي، ولم يخرج الصوفية عن هذا كما رأينا.

استحالة الرؤية البصرية في الدنيا

لقـــد كان الصوفية أذكياء وحريصين إلى أبعد الحدود فلما قالوا بالمشاهدة خشـــوا أن يظن البعض أنهم من القائلين بجواز الرؤية في الدنيا ولذا صرحوا بأن الشـــهود بالقلـــب لا بالبصر، وأنه ليس رؤية حقيقية وإنما هو حقائق وإحسان ومعـــارف وقرب وحضور، وكان من الممكن أن يكفيهم هذا وأن يبرز عقيدتهم ويصـــرفها عن القائلين بالرؤية في الدنيا ولكنهم لعلمهم أن العقيدة لا يكفي فيها التضـــمين بـــل لا بد من التصريح نطقوا مؤكدين بنفي الرؤية البصرية للـــه في الدنيا فأنشد ذو النون:

لعمـــري مـــا استودعت سري وسره ... ســـواء حـــذار أن تشـــيع الســـرائر

(١) السراج: اللمع ٥٤٥ – ٥٤٦.

(٢) تفسير الطبري ج٥ ٢٦٦ ج٨ ٤٢٧، ٤٥٢.

ولا لاحظته مقلتاي بنظرة فتشهد نجوانا العيون النواظر
ولكن جعلت الوهم بيني وبينه رسولاً فأدى ما تكن الضمائر[1]

وقطع أبو علي الروزباري أن المشاهدات للقلوب والمرئيات للأبصار والله ليس من المرئيات الحسية فلا يرى في الدنيا بالبصر حسبما نطق الجيلاني، وبين الكلاباذي أن نفي الرؤية في الدنيا هو إجماع الصوفية ولم يرد عنهم في نثر ولا نظم ولا حكاية ما يفيد غير ذَلِكَ.

كما أن سهلاً والخراز والجنيد والنوري والسراج وجماعة من رجال القوم غير قليل حاربوا بشدة من لبس عليهم الشيطان وزعموا أنهم يرون الله في خلواتهم،وقد استدل الصوفية على ذلك بقوله سبحانه : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ومع أن ابن عباس وقتادة فرقوا بين الإدراك الذي هو إحاطة فرفضوه وبين الرؤية التي ليس فيها إحاطة فجوزوها إلا أن الصوفية أخذوا بظاهر النص ولم يدخلوا في تحليل أو تعليل حبًّا في السلامة وبعدًا عن التشبيه. هذا ومن المعروف كذلك أنهم جوزوا رؤية الله في الآخرة حسبما ورد على لسان ابن عطاء الأدمي والغزالي والجيلاني[2] استنادًا إلى قوله سبحانه: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]. وقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر**» فهم سنيون سلفيون من تلك الوجهة.

---

(١) اللمع: ٤٩٤.
(٢) تاريخ بغداد ج٥: ٥٩ ، الغزالي: الإحياء ج٤: ٢٦٩ ، ٢٧١، والجيلاني: الفتح الرباني ١١٢.

وحدة الشهود

المشاهدة أنواع ودرجات، مشاهدة خلق في حق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، كما رأينا فيما سبق من صلتها بحقائق الإيمان والإحسان، والمشاهدة الثانية حق في خلق وهي وحدة الشهود الفعلية، والثالثة حق بلا خلق وهي الوحدة الذاتية، وبما أننا قد تحدثنا عن الدرجة الأولى فإن الحديث هنا يخص الدرجة الثانية والثالثة.

أولا: وحدة الشهود الفعلية

بعد أن يجتاز السالك الدرجة الأولى ويقوى يقينه ويشتد قربه تتهاوى منه رسومه وحظوظه وآثار الخلائق عليه وما يزال كذلك حتى ينتقل من الجمع إلى عين الجمع ومن مطلق اليقين إلى عين اليقين وفي هذه الدرجة لا يشاهد إلا فعل الله ساريًا في المخلوقات، وكأنه رأى الموجودات قائمة بالله وشهدها لا بذاتها ولكن بقدرة الله وحده فليست هي ولكنه هو، وما شاهدها ثم شاهد فاعلها وإنما شاهد الفاعل وعلم به كل شيء، وبما أن الله واحد وفعله واحد وقد أيقنوا بذلك لذا سميناها بوحدة الشهود الفعلية، وتمر هذه الوحدة بمرحلتين:

المرحلة الأولى تبدو معتدلة هادئة يشع منها بريق الإيمان والتوحيد الخالص ويظهر العبد مستغرقًا في شهود الواحدية القادرة المسيطرة، وقد تذوق أبو بكر تلك الحالة فقال ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله[1]، وقال عامر بن عبد قيس ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني[2].

وهذان النصان قد عبَّرا عن تلك الوحدة تعبيرًا صادقًا بحيث يمكن القول بأن

---

(١) ابن عربي الفتوحات ج٢: ٧٤٨.

(٢) الطوسي: اللمع ٨٤، ١٠١.

obeikandi.com

الصوفية المعتدلين السنيين والسلفيين لم يخرجوا عن فحوى هذا الكلام إلا بشيء من التفصيل والتركيز على ضرورة الاحتراق ليزول الافتراق ويحل الجمع فنشهد الوحدة الصادقة، يقول عمرو بن عثمان المكي: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه وبه فكانوا غائبين حاضرين[1]، وقال الشبلي:

فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم ... ولاحظت معلومًا بغير عيان[2]

وسمع الشيخ أبو عبد الله الاسكندري عارفة تقول بجبال لكام:

ما الجزع وما الغضى وما نعمان ... لولاك وما طويلع والبان
ما ينفعني العقيق والسكان ... إن لم أركم بالحمى سكان[3]

وجميع أجزاء الكون منفصلة عن الذات ولكنها عالقة به يقول سعيد بن أبي الخير:

أنت كالشمس ... وأنا كالذرة
ومن هنا يطلقون عَلَيَّ الذرة ... العالقة بالشمس[4]

ولم تخرج أقوال الهروي والغزالي وابن القيم والشاذلي عن هذه المعاني، وإن كنَّا نلحظ على وحدة الشهود في تلك المرحلة أنها تتم في حال التثبيت والتمكين وشدة اليقين والطمأنينة والشخوص بعين القلب إلى الله والاستغراق في وحدة فعله وتدبيره، وهذا الاستغراق الذي حوى وجود الْمُوَحِّد في مشاهدة جمال

(١) نفسه.
(٢) البغدادي تاريخ بغداد ج١٤ :٣٩٠.
(٣) اليافعي روض الرياحين: ٣٩.
(٤) أسرار التوحيد: ٣٥٦.

obeikandl.com

الواحد في عين الجمع. وأقامه في مطالعة تفرد الحق بالأزلية وبالخلق فكان الله ولا شيء ويكون بعد كل شيء وهو المكون لكل شيء فليس هناك موجد للموجودات إلا واحد، وتلك منزلة الأولياء الصديقين وأرباب الحقيقة الذين انتفى لديهم كل حجاب أو غفلة أو فترة[1].

كما ترد هذه الوحدة على قلب السالك في حال الوجد أيضًا، وسواء أكانت في حال الطمأنينة أم في حال الوجد فإن التفرقة بين الناظر والمنظور وبين الحق والخلق ما زالت قائمة وما زال رجال الطريق يتحدثون عن الجذع والغضي والعقيق والسكان والذرة والشمس، ولم يقولوا: إن الحق عين الخلق بالكلية، وما زالوا يفرقون بين حق له وجوده الغني وفعله الواحد وبين خلق له وجوده المتكثر المفتقر الحادث الفاني، ولذا يقول الشيخ رسلان الدمشقي: مشاهدة العارف تفيده تمكين التحكيم في الجمع وبروز التفرقة في الإطلاع[2].

وبجانب هذه التفرقة بين الحق والخلق فإنهم ركزوا على أن العبودية سابقة للشهود وداخلة في الطريق الموصل إليه فمن تحقق في العبودية ظهر سره بمشاهدة الغيوب وأجابته القدرة إلى كل ما يريد، وهي كذلك ملازمة لحال الشهود بعد الوصول إلى مرحلة الوحدة الفعلية إذ أفضل الأعمال تصحيح العبودية على المشاهدة وملازمة الخدمة على السنة[3]، على حد تعبير سعيد بن سلام المغربي والمرتعش النيسابوري.

وأما **المرحلة الثانية** من وحدة الشهود الفعلية فهي تشترك مع المرحلة الأولى

---

(١) مدارج السالكين ج٣: ٢٤١-٢٤٤ وروضة الطالبين ١٢٤ والإحياء ج٤: ٢١٢، ٢٥٤ ، ولطائف المن: ٣٠ ، ٣٣ ، ١٧١.
(٢) طبقات الشعراني ج١: ١٦٠.
(٣) طبقات السلمي : ٨٦ ، ١٨٨.

في أصول الحال من ناحية مطالعة الخلق بالحق وشهوده فاعلاً واحدًا ورؤية الأشياء به لا بذواها ولكن تختلف عنها من حيث اتجاه أصحابها الذين يغلب عليهم الانتماء إلى الطابع الفلسفي والذين جاءت أقوالهم في وحدة الشهود الفعلية صاخبة عارمة تتجاوز الأسلوب الهادئ الذي رأيناه في الأقوال الخاصة بالمرحلة الأولى وتنأى عن العبارات المكْسُوَّةِ بالأثواب الشرعية وترتدي أثوابًا أخرى أشد جرأة وأكثر اقترابًا من فقدان الأنية والالتحام بالهوية.

ونكاد هنا لا نعثر على أقوال الإيمان والحقائق الواحدية والأحدية والخلق والفعل والتوحيد التي امتلأت بها عبارات اللون الأول، وإنما حلت محلها ألفاظ الحلاج القائلة: من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر، لا تصح هذه المعاني للمتواني ولا الفاني ولا الجاني ولا لمن يطلب الأماني كأنّي وكأنّي هو أو هو أنّي لا تَوّق عني إن كنت إنّي[1]، ويقول ابن أبي الخير عن مرحلته النهائية: كأني هو[2]، وينشد ابن عربي:

إذا تجردت عن وجودي … كنت أنا الهو على الشهود
وكان كوني لأن عيني … عين شهود بلا مزيد[3]

فأنت تلحظ الفرق في اللغة التي تحدث بها هؤلاء عن اللغة في الأولى، فلم ترد كلمة أنا والهو أو هو بالمرة على ألسنة السابقين وكانوا أحرص وأضبط من الحلاج ومن بعده، أما الألفاظ التي تحت أيدينا فإنها قفزت إلى الرحاب المقدس وتجاوزت الحرم الآمن واتصفت بالرعونة والجرأة وعدم الاعتدال وكثرة الترديد وفقدت سلاستها وروحيتها المشبعة بالأسرار، واتسمت كذلك بصبغة عقلية أكثر منها ذوقية.

(١) من أشعار الحلاج : ١٣٩.
(٢) أسرار التوحيد : ٣٤٥.
(٣) ديوان ابن عربي : ٤١، ٤٢، ٥٠.

ونكاد نشم بأنوفنا روائح الفكر تفوح من بين الكلمات والسطور، وهذا كل ما يمكن أن نوجهه إليها من نقد، أما ابن تيمية وابن القيم فإنهما رفضا مثل هذه الأقوال واعتبراها موهمة لرفع الأنية ولعدم التفرقة.

وأرى تعقيبًا على نقدهما أن الشكل اللفظي لدى الحلاج وابن أبي الخير وابن عربي هو المهلهل فقط، ولو أنه كان متماسكًا منسوجًا نسجًا محكمًا وقريبًا من الروح الشرعية لسلم الموقف تمامًا. ولا أوافق الناقدين على زعمهما برفع الأنية وعدم التفرقة لأن ألفاظ التشبيه ما زالت موجودة في النصوص السابقة ولفظة كأن تتردد كثيرًا والتشبيه مشعر بالأنينية في المشبه والمشبه به.

وأيضًا فإن ابن عربي أفصح حقيقة عن وحدة الشهود الفعلية حين قال في البيتين السابقين: إن كينونته موجود بالهو الغائب وأن وجوده مرتبط به سبحانه وإن رآه واحدًا فهو ليس اتحاد الذاتين في الواقع وإنما من ناحية الشهود فقط، ويقول معبرًا عن التفرقة بأسلوب واضح:

فإذا انجلى الغمام فذاته ... تبدو إلى الأنوار في الأنوار

والنور يدرج مثله في ضوئه ... كالشمس لا تفني ضياء النار

فترى البصائر والعيون جلاله ... وجماله في الشمس والأقمار[1]

ويقول عن وحدة الشهود هذه: هي التي يقول فيها صاحبها كنت مغمض العين ففتحتها فما وقعت عيني على كل شيء إلا كان هو الله فما رأيت إلا الله والأعيان على أصولها لا أثر في رؤيتي إياها[2]، فمع أن نور الواحد طغى على الكل فأخضعه إلى سلطانه وتعريفه إلا أن الشمس لا تفني الأنوار التي دونها

---

(١) ديوان ابن عربي: ٤١ ، ٤٢، ٥٠.

(٢) الفتوحات ج٢ : ٦ وانظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج٢: ٤٠١ والرسائل والمسائل ج١: ٨٣ ومدارج السالكين ج٣: ٢٤٢.

ولا تدخلها في حقيقتها، وكذلك لا تدخل حقائق الموجودات في الذات الإلهية وإن دانت لفعل الواحد و رأينا نحن هذا الفعل ساريًا في الموجودات، أي إننا نراه واحدًا في الشمس والأقمار مع بقاء الموجودات على أصولها وبقاء الحق بذاته ووحدانيته كما هو.

فحقيقة الحال من ناحية التفرد في الخلق والإبداع والإيجاد هي هي كما كانت في اللون الأول والاختلاف كامن في الجرأة اللفظية فقط.

كيف صح شهود الواحد في الكثرة؟

فإن قيل كيف صح عندهم مشاهدة الكثرة واحدًا أجاب البعض بأن هذه غاية علوم المكاشفة التي قال العارفون بعسرها وغموضها وبعدها عن مدارك العقل والتي لا يجوز إفشاؤها لأن صدور الأحرار قبول الأسرار، ولم يرتض الغزالي هذه الإجابة وإنما ضرب مثلا للتدليل على صحة وقوع هذا الحال وتقريبه إلى الأذهان من واقع الملاحظة الخارجية والاعتبارات العقلية فقال: إن الشيء قد يكون كثيرًا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدًا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، كالإنسان فهو واحد من جهة وكثير من جهة أخرى، والعقلاء عندما يشاهدونه من ناحية وحدته لا يخطر ببالهم أجزاؤه، وكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبارٍ ما من الاعتبارات واحد، وباعتبار آخر سواه كثير، وبعضها أشد كثرة من بعض، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا[1]، ولقد ردد هذا المثال طاش كبرى زاده وابن عربي وصاحب عين العلم.

(١) الإحياء ج٤: ٢١٢.

أدلة وحدة الشهود الفعلية من الكتاب والسنة

كان من الممكن أن نكتفي بما سقناه من أدلة على الشهود في المرحلة الأولى ونعتبر وحدة الشهود الفعلية صورة راقية للشهود من الدرجة الأدنى ومن ثم فأدلة الحال في بدايته هي أدلته في وسطه ونهايته مع فارق الترقي في أسرار الآيات والأحاديث، ولكن نظرًا لأهمية التدليل على هذه الأذواق التي هي محل جدل ورد وقبول أحببنا أن نقدم دليلاً على كل مرحلة يتناسب مع طبيعتها.

وإذا كانت طبيعة المرحلة الأولى تصعد من الأشياء إلى فاعلها وترد الأدلة تصحح النظر في الكون للوصول إلى خالقه فإن طبيعة وحدة الشهود الفعلية تنظر إلى الله واحدًا فاعلاً وتغض الطرف عما سواه، ومن المستحسن أن تكون الأدلة وأن يكون تذوقها متطابقين مع تلك الحالة، ونجد ذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥].

قال ابن عباس: أراه ملكهما وجلى له بواطن الأمور وظواهرها وسرها وعلانيتها ليوقن بذلك بصيرة لا خبرًا، وبه قال الطبري: كما أخبرنا النبي ﷺ أن الله زوى له الأرض حتى رأى مشارقها ومغاربها ورأى ملك أمته منها، وحينما قدمت إليه ثمرة حديثة النضج قبلها وقال: **«هذه قريبة عهد بالله»** فما نظر إلى حلاوتها ولا إلى شكلها ولكن شاهد فعل الله فيها.

واستدل الإمام الغزالي على هذا الحال بقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩]. حيث تذوق الملائكة حال الشهود فسجدوا لفعل الله في العبد الذي تنطق به الضمائر في الآية وهي التاء في «سويت ونفخت» والياء في «روحي» ولم ينظروا إلى ضمير العبد في

«لـــه» بينما امتنع إبليس عن السجود لنظره إلى آدم في ضميره[1]. ولا يخفى أن هذه الأدلة أطلعت العبيد على الموجودات من اللـــه وعرفوها به.

ثانيا: وحدة الشهود الذاتية

تعتـــبر هذه الدرجة هي المنـــزلة القصوى في الشهود حيث إن السالك فيها تجـــرد عن الخلق وعن فعل اللـــه وراح يتطلع إلى الذات الإلهية في سلطانها الذاتي والصـــفاتي بقطـــع الـــنظر عما تقتضيه الصفات أو الأسماء من أفعال في الكون، وصاحب هذا الحال يقف مستعذبًا مناجاته للـــه في الحقائق المتصلة بذاته سبحانه لا المرتـــبطة بأســـرار الأكـــوان وإيجادها وتسييرها، إنه غائص في أنوار الذات والصـــفات والأسماء تلكم الأنوار التي تنتشل العارف من المكونات وتسقط عنه جمـــيع الاعتبارات والتعلقات والمناسبات وتبقيه مع الذات في أحديتها وحضرتها الخاصـــة بحيـــث لا يشـــاهد غير ذات الواحد وغير صفاته[2]، وأسمائه وألطافه ومواهـــبه والمنازل العالية وتبدو الذات أمامه وحدة واحدة باعتبار حقائق الذاتية يقول ابن عربي:

الـــنار تضـــرم في قلـــبي وفي كبدي ... شـــوقًا إلى نور ذات الواحد الأحد
فجـــد عـــليَّ بـــنور الـــذات منفردًا ... حتى أغيب عن التوحيد بالأحد[3]

ويقول أبو الحسن الشاذلي:

والعـــارفون شـــاهدون لذاتـــه ... حـــتى كـــأن قلوبهـــم مـــثواه[4]

---

(١) الإحياء ج٤ :٢٦٨.
(٢) الغزالي: روضة الطالبين ١٢٤.
(٣) ديوان ابن عربي ١٣.
(٤) لطائف المن ١٧١ وانظر كذلك فتوح الغيب للجيلاني ومدارج السالكين ج٣ :٢٣٥.

وإذا كانت حالة الشهود من الدرجة الأولى خاصة بالمؤمنين ومن الدرجة الثانية في الوحدة الفعلية خاصة بالصديقين فإنها في الدرجة الثالثة خاصة بالعارفين وبالكمَّل من الخلق، والتجلي هنا فوق كل تجل من التجليات الكونية أو الملكوتية، وقلب المشاهِد لأنوار الذات عبارة عن ياقوتة حمراء ودرة نفيسة، ومع هذا السمو فإن الشهود في الدرجتين السابقتين يتيسر لعموم الناس وخواصهم فهو من هنا أشمل وأعم من الثالثة.

ومن ناحية ثانية فإن المشاهدة من الدرجة الثالثة عزيزة نادرة وغير ثابتة وغير مستمرة بخلافها في الأولين فإنهما يقعان لكثير من المؤمنين ويستمران ويثبتان، هذا وليس معنى ندرتها أنها لا تقع وأنها لا سند لها من الشرع بل إننا لنجد لها دليلاً من أحوال رسول الله ﷺ في قوله: «**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**» وروى عبد الرحمن بن عائشة الحضرمي قَالَ: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات غداة، فقال له قائل: ما رأيتك أسفر وجهًا منك الغداة؟ فقال: «**وما لي وقد تبدى لي ربي في أحسن صورة فقال فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم يا رب فوضع يده بين كتفيَّ فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماوات والأرض**»(١) والحديث من المتشابهات ولكنه يدل على التجلي الذاتي وعلى ثماره العرفانية والنورانية وعلى أنه لا يقع إلا نادرًا كما وقع ذلك لرسول الله ﷺ، ولو كان من خصوصيته لنبه على ذلك.

التجلي الذاتي لا يعني إدراك الكنه

لما تحدث الصوفية في الوحدة الذاتية خشوا أن يظن البعض أنهم يريدون إدراك حقيقة الذات أو كنهها فنبهوا على أن والوحدة مراد بها اللطف والسر والصفة والاسم ولم يكتفوا بهذا بل أضافوا إلى ما قالوا من استحالة إدراك الذات

---

(١) انظر تفسير الطبري ج١١ ٤٧٦ وتخريج الحديث للشيخ شاكر في ج١٣ : ٥٩-٦٠.

Obeikandi.com

والحقيقة ،والذي سبق ذكره في فصل الذات الإلهية أن الوحدة الشهودية لا تسعى إلى معرفة اللـــه بالحد ولا تغوص في الذات لتفهمها على الحقيقة فهذا مستحيل إدراكـــه والـــذات مستترة عنَّا كما يقول الروزباري[(١)]؛ ولأن الحديث لا يدرك القديم بصفة معلومة حسبما صرح الشبلي[(٢)].

ويقول الشيخ حماد بن مسلم: القلوب ثلاثة:

قلـــب يطوف في الدنيا وقلب يطوف في الآخرة وقلب يطوف بالمولى لا في المولى[(٣)]، فما شاهد القلب الحق كنهًا ولا يمكن أن يراه[(٤)] على مذهب ابن عربي.

ويقـــول الشيخ زكريا الأنصاري مبينًا مذهبهم: ليس المراد بقولهم المكاشفة والمشاهدة ونحوها من الألفاظ معاينة الذات حقيقة فإن ذلك لا يقع في الدنيا ولا في الآخـــرة على الوجه المعهود[(٥)]، وإنما التجلي والمشاهدة أنوار وأسرار تلقى في قلب العبد فتستغرقه وتفنيه عن النفس والخلق، وليست الأنوار هي حقيقة الذات وإنمـــا علامة لـــه في القلب الجلي، ومن أين لنا بمشاهدة الحق وأنى نطيق ذلك؟ وبه صرح ابن القيم والجيلي واللـــه تعالى أجل وأسمى.

---

(١) طبقات السلمي: ٨٨.
(٢) اللمع: ٢٩٣.
(٣) الإحياء: ج٤: ٢٦٩.
(٤) فصوص الحكم : ٣٣.
(٥) الرسالة القشيرية ج١: ٢٢٥ ، ٢٤٦.